مركز دراسات الجنوب الليبي للبحوث والتنمية.

Centre du Sud libyen pour la recherché et les etudes et le développement .

قسم الدراسات والتوثيق

دراسة بعنوان / فزان القديمة وسكانها

فزان القديمة وسكانها

فزان هي فزانيا القديمة , هي بلاد الجرمنت الذين توسعت حدودهم الى ما وراء فزان الحالية شمالاً وجنوبا , وهذا ما قاله المؤرخ بليني فى معرض ذكره لحملة القائد الروماني كورنيليوس بالبوس على تلك المنطقة , ان فزانيا ترتفع عن منطقة

سرت الكبرى وسرت الصغرى وتمتد باتجاه الصحراء بما فيها مدينتا الآيلة وسيلابة الخاضعتان للرومان مثل مدينة سيدامس التابعة لمنطقة صبراتة التي تجاورها , ويتلو هذه المدن سلسلة من الجبال تمتد من الشرق نحو الغرب , وتعرف بالجبال السوداء , بسبب مظهرها الذي يوحي كأنها محروقة وبعد هذه السلسلة تبدأ الصحراء الحقيقية وتظم مدن , ما تجليس , ودبريس , وجرمة , وهذه هي عاصمة الجرمنت والمدينة الرئيسية بالنسبة لهم , ويكاد ان تكون هذه المناطق مقارنة مع المناطق والقبائل التي ذكرت اثناء جملة بالبوس , سيدامس تتطابق مع غدامس الحالية وجرمة .

وعلي هذا يمكن القول ان فزان الحالية هي الجزء الاكبر بل تكاد تكون هي فزانيا القديمة .

قال هيرودوت عن سكان ليبيا انطلاقاً من مصر فى اتجاه الغرب بعد حصر سكان ساحل البحر التوسط , أن هناك ارتفاع رملي يمتد من طيبة الي أعمدة هرقل تنقسم الي مراحل تبلغ كل منها مسيرة حوالي عشرة ايام فيها مرتفعات من صخور ملحية بينابيع عذبة المياه , وقد عاش بجوار هذه الينابيع بجوار طيبة الامونيون ثم ألا وجليون وبعدهم الجرمنت وعاش الجيتوليون إلي الغرب من الجرمنت , ويوجد الاثيوبيون الي الجنوب الغربي , والجنوب , والجنوب الشرقي , وارسل الرومان حملتين اضافيتين , بعد أن حول كورنيليوس بالبوس بلاد الجرمنت الي ولاية فزانيا الرومانية , وحافظ علي جرمة عاصمة لها , , كانت الحملة الاولي تحت قيادة سيبتيموس فلاكوس , والأخرى تحت قيادة , يوليوس ماتيرنوس التي بلغت المناطق الاثيوبية الواقعة جنوب فزان وتعتبر بعض أثار المباني المتناثرة , فى مدينة جرمة القديمة , وكتل الاحجار الرملية الكبيرة الضاربة الي الحمرة , التي اخذت من سلسلة الإمساك المجاورة , الشواهد علي السيطرة الرومانية .

كانت حملة بالبوس قبع عدين من ميلاد المسيح عليه السلام , واما الحملات ألا خري فقد وقعت بعد مضى قرن من الحملة الاولي , ومنذ ذلك التاريخ اختفي ذكر هذه البلاد من المصادر التي سجلت تاريخ الشمال الافريقي الى ما بعد حوالي ثلاث قرون بأنهاء الوندال للسيطرة الرومانية علي افريقيا التي لم يمضى عليها اكثر من قرن ليظهر علي المسرح الأفريقي المغاربة والبيزنطيون وكانت تلك الفترة مضطربة وكان التركيز علي الاقاليم القريبة من الساحل ولم تلعب الاقاليم

الصحراوية الحقيقية بسكانها المتناثرين فى الواحات والوديان مع الفقر فى الموارد أي دور يذكر فى هذه الاحداث الى عصفت بالمنطقة الى ان جاء عهد الفتح الإسلامي الذى انهي العهد القديم واعلن عن بداية عهد جديد بكل صفاته الدينية واللغوية والحضارية والثقافية والسياسية والاجتماعية والتركيبة السكانية .

فحالما فتحت مصر في عهد الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضى الله عنه , عام 642 ميلادي علي يد عمرو بن العاص الذى ما ان انتهي من فتح مصر حتى واصل الزحف الي برقة ودخلها دون قتال ومن هناك ارسل عقبة بن نافع الفهري الي زويلة بفزان , فى حين توجه بنفسه صوب طرابلس ومن هناك توجه بشر ابن أرطاة بناء علي اوامره نخو ودان وسرعان ما تم فتح طرابلس ومن ثم فزان دون صعوبات , وكان يتواجد امام الفاتحون العرب , لوته فى برقة وفى زلة كانت قبيلة مزاته وربما هوارة , ويقال ان عقبة بن نافع خلال فترة الاربع سنوات التالية لفتح فزان اثناء زحفه نحو المغرب قام بانحراف اخر فى طريقة الى الجنوب , ويذكر ابن عبد الحكم (ان عقبة تقدم من غدامس نحو فزان فاتحاً جرمة التي ما زلت في ذلك الوقت عاصمة فزان , ومعاقل البلاد الأخرى , وامتدت الحملة فى الحقيقة حتى كوار)1, وبعد ذلك تضمحل اخبار فزان وتتراجع عن المشهد التاريخي الى بداية القرن العاشر الميلادي الى فترة ظهور دولة بنى الخطاب من قبيلة هوارة التي اسسها عبدالله بن الخطاب فى مدينة زويلة وجعلها عاصمة لفزان التي اصحت تحت حكمة وفى منطقة نفوذ دولته .

واستمرت فترة حكم اسرة ال الخطاب الى نهاية القرن الثاني عشر الى ان دخلها القائد قراقوش قادما من مصر بأمر صلاح الدين الأيوبي وقتل اخر حكام اسرة ال الخطاب ولم يطول به الوقت ليقيم نظام حكم ثابت حيث قتل علي يد احد اعوانه فى منطقة ودان , وبعد فترة قراقوش بحوالي خمس عقود وقعت فزان تحت نفوذ مملكة كانم ومع هذا الامتداد الذى شمل جميع مناطق فزان حتى ودان , ومن الشواهد المحددة لهذه الفترة والدالة من اثار فى تراغن مثل قلعة بنى نصور والبئر المعرفة بقدمها وكذلك البساتين والساحات التي تحمل اسماء كانوريه وهى لغة كانم وبرنو .



1- أبو القاسم بن ابى الحكم , فتوح مصر , بتصرف

وفى القرن الرابع عشر تراجع نفوذ مملكة كانم عن فزان نتيجة لعدة عوامل منها بعد المسافة وعدم الجدوى الاقتصادية باستثناء محصول التمور و للحروب الطاحنة التي خاضتها مملكة كانم التي امتصت طاقاتها وتحول توجه الحكام الي برنو .

ومع ظهور دولة بنى امحمد في القرن السادس عشر وخاصة في عهد المنتصر 1576- 1577 م وجه والي طرابلس حملة علي فزان نتيجة لمكيدة دبرتها احدى زوجات المنتصر الذى توفي قبل ان يتم اخضاع المنطقة تماما وهروب ابنه وولي عهده - الناصر - الى كاشينا في بلاد الهوسة , إلا ان الاهالي في فزان ثاروا على الحاميات العثمانية وطردوهم من المنطقة ودعوا الامير الناصر من بلاد السودان الذى تولي الحكم واستمر فيه حتى عام 1599م

التوزيع السكاني

ولما كان التوزيع السكاني فى الاقليم متناثراً كان مظهرهم الخارجي مختلفاً جداً حيث يمثل أهالي فزان خليطاً فهناك فى الجنوب فى تجرهي ومدروسة وبخي , والقطرون التبو الخلص من تيبستي وفى الجنوب الغربي وفى الوادي الغربي الطوارق الخلص وفى الشمال والشرق سوكنه وودان وتمسه , هناك تجمعات

منفصلة للبربر فى الشمال كما يوجد عرب مستقرون خلص وبدو عرب او بربر وعبيد من برنو من بلاد السودان وبلدان افريقيا الداخلية واحفادهم من الاحرار والعبيد المنتشرين فى جميع أرجاء الاقليم .
كما يشاهد الجرمنت السكان الاصليين للإقليم يمثلون مع القبائل الصحراوية الاخرى المرحلة الثانية من الليبيين ممثلين تدرجاً اضافياً بينهم وقد كانوا جيران الاثيوبيين الذين عاشوا الى الجنوب منهم ويشبهونهم الي حداً كبير أيضاً ويلاحظ انتقال تدريجي فى المظهر العام من اهالي الأقاليم الواقعة على الساحل إلي القبائل القاطنة في أقصى الحدود الجنوبية للصحراء الامر الذى افسح المجال لصياغة تعبير (الجيتوليين السود) الذى تبناه – دوفيريه – وبالاتجاه صوب اعالي نهر النيل كيف ان سكان مصر العليا يندمجون علي نحو تدريجي جداً فى البربر أو البرابرة وأهالي البجة وهؤلاء مرة اخري مع السودانيين .
و التبو الجنوبيين أو الدازا هم تدرج فى اللون جعلهم اقرب الي العرق مما هو الحال بالنسبة للتبو الشماليين أو التيدا كما توجد صعوبات فى تحديد الكيفية التي يجب أن يصنف بموجبها الزغاوة في شمال دار فور مع وجود تشابه كبير بين الطوارق وبربر الاقاليم الساحلية هذا يظهر سلسلة من التدرج والانتقال ومن الصعوبة بمكان رسم حطوط الحدود او الفواصل بين هذه الاعراق فى اغلب الاحيان .
ان الصحراء بمسافاتها الهائلة ومناخها المتطرف وعزلة الواحات المأهولة بالسكان وموصلاتها المحدودة قد يسرت بكل تأكيد علي وجه العموم علي العناصر المختلفة لسكانها المحافظة علي مميزاتها الفردية و خصوصيتها الاجتماعية , وبرغم ذلك فمن الممكن الإدراك ان نقاء الجرمنت مع صغر عددهم لابد وأنه قد ضعف تدريجياً عنما كان اقليمهم تحت سيرة الرومان , وبعد الفتح الإسلامي الذى جاء ببعض القبائل العربية الى الجنوب وفيما بعد حدث فى الاتجاه المعاكس من دفع قبائل برنو ومستوطناتهم عبر - كوار - نحو فزان ولابد وان هذه العناصر الوافدة الجديدة غمرت اهالي فزان الاصليين تدريجياً وهم قليلين نسبياً ، كما تطورت التجارة التي شجعت على الانشطة والحركة بين شمال افريقيا وبلان السودان التي سرعان ما جعلت الطريق من فزان الي المنطقة المحيطة ببحيرة تشاد نتيجة لامتداداتها المائية وعدد واحاتها وأمنها وعائداتها المربحة التي تقدمها الطريق المظلة لهذا الغرض .
واستقر تجار البربر والعرب في شمال فزان , وسرعان ما اصبح الاقليم مركزاً لأكثر الطرق التجارية , التي تربط ما بين طرابلس وبرنو وبين وتمبكتو والقاهرة

وبين التبو والطوارق وكانت القوافل العديدة تغدو وتروح وكانت تجارة الرقيق وخاصة الاناث قد ساهمت في تعديل السكان الاصليين مع اضافة الرومان والعرب وسكان برنو والعثمانيين الذين استقروا وسكنوا فزان وان كلا منهم كان له اثر في تشكيل الطبيعة السكانية بنسب متفاوتة بحسب العدد والفترة الزمنة من الحكم والمرونة في الاختلاط بالسكان الاصليين , ويصف الطبيب الرحالة الألماني جوستاف ناختيجال في ستينات القرن التاسع عشر ما شاهده فيقول – لا نقابل عملياً في القرى الأكثر أهمية سوى الغرباء ففي زلة طبقاً - لفون بويرمان – يعيش اولاد خريص الذين يقال انهم هاجروا من مصر منذ الف سنة مضت , واما داخل اسوار الفقها وتمسه وزيغن فهناك الزيادين , والبربر الخلص هم السكان المهيمنون علي الدوام في سوكنه وكذلك في ودان , وسادة زويلة هم الشرفاء و تمنهنت تحت سيطرة مؤسسيها بني بدر , ويقال بأن الجديد في واحة سبها قد اسسها مرابط هو حامد الحضيري , و وادى الشاطئ بأكمله تقريباً يتبع البدو الشماليين , ويسكن القطرون المرابطية , ويقال بأن أسلافهم قد هاجروا من المغرب , وهناك في هون العديد من فروع المرابطين من اولاد وافى , وقد يختلف أصل جميع هذه القبائل والعائلات اختلافاً كبيراً بربراً وعرباً , وعلي الاغلب فأن اجزاء ضئيلة من الجرمنت القدامى ربما امتصوا من قبلهم واذا ما اضفنا الي هؤلاء طوارق الوادي الغربي و تبو مديريه القطرون , والرقيق المتعددين واحفادهم , والبربر الشماليين والعرب الذين هاجروا حديثاً الى هناك ونطرح جميع هؤلاء من مجموع السكان الذى هو علي اية حال قليل فلا يبقى سوي عدد صغير من الافراد يتحتم شملهم تحت اسم الفزانيين ويبدو هؤلاء مرة اخرى خليطا غير مميز منهم جميعاً)1 .

ويظهر الفزانيون فيما يخص لون البشرة نفس التدرج في اللون السائد بين الطوارق و التبو وكذلك بين الطرابلسيين وسكان برنو وهم ايضاً\اقرب الى جيرانهم سكان الصحراء و يظهر معدل الفزاني اجمل الي حد ما من التبو الشمالي وله نفس الطول تقريباً , ولكن بدون جمال أناقته , و مرونة حركته ومن النادر تجد لوجوههم نفس الشكل البيضاوي وملامح التبو الدقيقة , لكنها دائرية وبدون ملامح واضحة وهم غير رشيقين في الغالب , ويظهرون ميلاً نحو البدانة التي تعتبر غير عادية في عالم الصحراء .

ويذكر ناختيجال : إن اختلاف صفات اهالي فزان عن صفات اقرب جيرانهم الصحراويين واضح تماماً , فالفزاني ينقصه النشاط متخوف و ودود أمين و مغرم

بالمتعة , وبقدر ما هو الطارقي شجاع وقاس فإن، والفرق قد يكون اكثر وضوحاً بين النساء الفزانيات ونساء التيدا حتي في مظهرهن الخارجي وملامحهن و مشيتهن و وقفتهن و جلستهن , في حين تعطي النسوة الفزانيات الانطباع العكسي تماما و تظهر الاولي في إدارة شؤون بيوتهن و في التجارة أثناء غياب أزواجهن , عزيمة رجالية ونشاطاً واخلاصاً نموذجياً , وأما الاخيرة فهي مهملة ضعيفة عابثة .

وفى المراكز السكانية الحضرية وهي بلدات صغيرة تحيط بها اسوار تشاهد التنظيم وفن العمارة للمنازل الذي يذكر بالقري الصغيرة في الساحل الشمالي , كما يوجد بما يذكر بمدن شمال برنو , فبينما الشوارع الضيقة والطريقة التي تتداخل بها حجرات المنازل بعضها في بعض والفناء غير المسقوف الذي يتوسطها تذكرنا بالشمال مع الاختلاف في مادة البناء التي تستعمل هي الطين بدل الحجارة كما ان التراب الملحي كان يستخدم من اقدم العصور فقد ذكره هيرو دوت باعتباره مادة البناء الوحيدة في هذه المناطق من ليبيا :

كما تسود في فزان المساحات المحصورة والصغيرة كما توج الظاهرة الخاصة المتمثلة في القلاع الكبيرة التي تظهر عملاقة فوق بيوت الاهالي الواطئة , وهذه القلاع العملاقة تذكرنا بما تتسم به من عدم تناسق الي حد ما بحصون تبو الرشادة في كوار و برقو التي تتجمع عند سفوحها اكواخ القري , ويبدو ان هذه القلاع من خاصيات البربر , لوقت طويل وتتمتع بالطابع ذاته في سوكنه و تمسه و تجرهي , كما توجد أبنية في واحة التبو الحالية جبادو وفي – سقدم - وهي من قري التبو المهجورة في شمال كوار وفي قصيبي و هي مدينة في كوار تحولت إلي أنقاض و في أقرم و هي واحة تقع الي الغرب من هناك , كل هذه القري باستثناء سوكنه , التي نشأت فيما بعد , يبدو أنها مستوطنات بربرية من الفترة نفسها و أسستها قبيلة واحدة

إن الفزاني لا يعرف الأكواخ الواطئة المستطيلة الممتدة ذات الهيكل المتشكل من العيدان وتعلق عليها حصائر والتي يتمسك بها في الغالب التبو ممن استقروا مؤقتاً هناك ألا أن كليهما يلتقيان في طريقة تشييد مساكن مماثلة ينسجها من سعف النخيل سكان القري الصغيرة الفقراء , وذلك سكان البساتين , وباستثناء بدو الشمال الذين يربون الابل , وينسجون خيامهم الثقيلة من وبر الابل , فإن السكان مضطرون بسبب ضآلة المواد المساعدة في المنطقة إلي اتخاذ نوع من النموذج الموحد في المسكن وطرز المعيشة علي الرغم من الفروق القومية بينهم .

هناك عامل لا يمكن تغافله قد ساهم مع تعاقب القرون في تقليل الفروقات القبلية داخل حدود فزان وهو التقدم الحضاري الذى وصل هناك عبر التواصل مع الشمال وتعزز اكثر مع انتشار الاسلام في ربوع المنطقة كان له ثر كبير في ازالة الفوارق التقارب الديني وتوسع علاقات المصاهرة وتداخل الانساب .

ومن خلا متابعة العادات الاجتماعية والرابطة الاجتماعية والاحتفالات في المناسبات مثل الافراح الخطبة والزاج واستقبال المواليد الجدد– الاسبوع والختان – كذلك المأتم وعادات الدفن جميعها تتبع العادات بالتقاليد الاسلامية ومتأثرة بها , والحياة الدينية في فزان تتسم بالرقة والاعتدال فهم جميعهم سنيون محافظون معتدلون يتبعون المذهب المالكي , وان الطريقة السنوسية السائدة في المنطقة هي اساساً ليست سوى طريقة دعوية اصلاحية لا تدعو الى اختلاف فقهي أو عقائدي بهل هي طريقة سنية اصلاحية تتبه المذهب المالكي السائد في افريقيا .

كما ان اللغة العربية هي اللغة هي المادة الوحيدة في الدراسة وهي لغة التدريس مع وجود اللهجات واللغات المحلية التي تشكل عادة المعيار الاساسي في تحديد الانتماء العرقي والقبلي بين صفوف سكان فزان ، ونجد التبو والطوارق له لغاتهم الخاصة كما لسكان سوكنه وودان وتمسه لغتهم البربرية بالإضافة الس سكان غدامس .

واجمال مميزات سكان فزان تلاحظ في كل صفاتهم وأنشطتهم وفى حياتهم الداخلية والخارجية , انتقالا من سكان الساحل الشمالي إلي قبائل الصحراء الى جانب اهل بلاد السودان و وتفردهم قد لطفه العناصر البربرية والعربية القادمة من الشمال وزودهم بمدنية جديدة بالإضافة الى التأثيرات القادمة من الجنوب مع تداخل العلاقات التجارية والاجتماعية مع قبائل التبو وطوارق تييستي وهذا ساعد في تجانس سكان الجنوب واخرج لنا نمط سكاني اجتماعي يعرف بسكان فزان الحالية .





1- جوستاف ناختيجال , الصحراء وبلاد السودان , ج1, 231, 232

